١

أنت ما تحبُّ

العبادة طبيعةٌ إنسانيَّة

ماذا تريد؟

هذا هو السؤال، وهو أوَّل وآخر وأهمُّ سؤالٍ في التلمذة المسيحيَّة. وفي إنجيل يوحنَّا، كان هذا أوَّل سؤال يطرحه يسوع على مَن يريدون أن يتبعوه. فعندما بدأ تلميذان من تلاميذ يوحنَّا في اتِّباع يسوع، التفت نحوَهما وسألهما تحديدًا: "ماذا تطلبان؟" (يوحنَّا ١: ٣٨).

إنَّه السؤال الكامن تقريبًا وراء أيِّ سؤال يطرحه يسوع على كلٍّ منَّا. ولعلَّ سؤالَ "هل تتبعني؟" هو صيغة أخرى لسؤال "ماذا تريد؟" كما هي حال السؤال الأساسيِّ الذي يطرحه يسوعُ على تلميذه المخطئ بطرس: "أتحبُّني؟" (يوحنَّا ٢١: ١٦).

لا يقابل يسوع متَّى ويوحنَّا- أو أنا أو أنت- ليسألَ: "ماذا تعرف؟" أو "بِمَ تؤمن؟"، بل يسأل: "ماذا تريد؟"، وهذا هو أكثر سؤال ثاقب يمكن أن يطرحه يسوع، وذلك بالتحديد لأنَّنا نكون ما نحبُّ؛ فما نريده ونصبو إليه يقع في قلب

هويَّتنا، الذي منه تنبع كلُّ أفعالنا وسلوكيَّاتنا، كما يتردَّدُ صدى ما نريده من داخل قلوبنا، في مركَز كِياننا الإنسانيِّ، لذلك يشير علينا الكتاب المقدَّس بالَقول: "فوق كلِّ تحفُّظ احفظ قلبك لأنَّ منه مخارج الحياة" (أمثال ٤: ٢٣). يمكننا أن نقول إنَّ التلمذة هي طريقة لتكريس قلبك، لتكون منتبهًا لما تحبُّ، وتتعامل معه تَعامُلًا مقصودًا.

التلمذة إذًا هي مسألة الجوع والعطش، أكثر من كونها المعرفة والاعتقاد. فأمرُ يسوع أن نتبعه هو أمرٌ لَنا لنتجاوَبَ مع محبَّته بمحبَّة- أن نريد ما يريده الله، ونرغب في ما يرغب فيه، وأن نجوع ونعطش إلى الله، ونشتاق إلى عالم يكون هو فيه الكلَّ في الكلِّ- وهي رؤية تُختَصَر في كلمتَين: "ملكوت الله".

ليس يسوعُ المعلِّم الذي ينقل معلومات إلى عقولنا، بل هو مَن يُشكِّل محبَّتنا، إذ لا يرضى بأن يودِعَ أفكارًا جديدةً في عقولنا، لكنَّه لا يستهدف شيئًا أقلَّ من تغيير رغباتنا، ومحبَّاتنا، واشتياقاتنا، فيلمسُ "تعليمه" ليس فقط مساحة التأمُّل الباردة الهادئة داخلنا، بل هو معلِّمٌ يقتحم المناطق الساخنة المفعمة بالحماسة داخل قلوبنا، فهو "الكلمة" الذي يخترق "إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ" ويميِّز "أفكار القلب ونيَّاته" (عبرانيِّين ٤: ١٢). إنَّ اتِّباع يسوع يعني أن تكون تلميذًا للمعلِّم الذي يعلِّمنا كيف نحبُّ. وأن تكون تلميذًا ليسوع يعني أن تنضمَّ إلى مدرسة المحبَّة؛ فيسوع ليس هو المحاضرَ الأساسيَّ، ومدرسته في المحبَّة ليست قاعةَ محاضرات نجلس فيها دون تفاعل لكتابة ملاحظات وتعليقات في حين يقدِّم يسوع حقائقَ عن نفسه في سلسلة من العروض التقديميَّة المكتظَّة بالكلمات.

لكنَّنا كثيرًا ما نتعامل مع التلمذة كأنَّها مجهود تلقينيٌّ، كما لو كانت التلمذة للمسيح هي عمومًا مشروع عقلانيٌّ، ومسألة اكتساب معرفة. لكن لماذا نفعل ذلك؟

السبب هو أنَّ كلَّ تناوُلٍ للتلمذة والتشكيل الروحيِّ المسيحيِّ يفترض نموذجًا ضمنيًّا لماهيَّة الإنسان. ورغم أنَّ هذه الافتراضات تظلُّ مكتومةً، وربَّما غير مُدركة، فإنَّنا نظلُّ نعمل بها دون أن ندري. وبحسب مفهومنا عن الكائن البشريّ، نُكوِّنُ مفهومَنا عن طريقة تعليمه وتشكيله. فإذا كان معنى أن تُصبح تلميذًا للمسيح هو أن تكون متعلِّمًا منه، فالكثير عندئذ يتعلَّق بمفهومك عن "التعلُّم"، كما يستندُ مفهومك عن التعلُّم أيضًا إلى مفهومك عن الإنسان. وبكلمات أخرى، سيعكسُ فهمُك للتلمذة مجموعةً من الفرضيَّات العاملة عن طبيعة البشر، رغم أنَّك لم تطرحْ على نفسك بتاتًا مثل هذه الأسئلة.

لفت هذا نظري بطريقة ملموسة قبل عدة سنوات، فبينما كنت أقلِّب في صفحات أحد إصدارات مجلَّة مسيحيَّة معروفة، صدمني إعلان ملوَّن عن برنامج لحفظ الآيات، وفي مركز هذا الإعلان كانت هناك صورةٌ لرَجُل ومطبوع على جبهته تلك العبارة المذهلة: "أنت ما تفكِّر فيه"، وهذه طريقة واضحة جدًّا للتصريح بما يعتقده الكثيرون منَّا ضمنيًّا. لقد تعلَّمنا بأساليب هي أقربُ إلى الحداثة منها إلى ثقافة الكتاب المقدَّس، أنَّ البشر هم **كائنات مُفكِّرة**، ورُغم أنَّنا ربَّما لم نقرأ بتاتًا- ولا حتَّى سمعنا- عن المفكِّر الفرنسيِّ من القرن السابع عشر رينيه ديكارت (René Descartes)، فإنَّ كثيرين منَّا يشاركونه تعريفه لجوهر الإنسان أنَّه "كائن مفكِّر" (Res Cogitans)، ومن ثَمَّ فإنَّنا مثل ديكارت، نرى

أنَّ أجسادنا (على أفضل تقدير!) ليست سوى أوعية خارجيَّة مؤقَّتة تحمل نفوسنا أو "عقولنا"، التي فيها يحدث كلُّ العمل الحقيقيّ لوجودنا الإنسانيّ. وبكلمات أخرى، نتخيَّل البشر كأنَّهم دُمى لها رؤوس ضخمة وأجسام صغيرة، إذ نتصوَّر أنَّ العقل هو مكان السيطرة والتحكُّم الكامل في الإنسان، فالتفكير هو الذي يُعرِّف مَن نحن، وهكذا فشعار "أنت ما تفكِّر فيه" هو الشعار الذي يختزلُ الإنسانَ إلى مجرَّد عقل موضوع على عصا. لذا يفترض هذا النموذج أنَّ قلبَ الإنسان هو عقله، فقد قال ديكارت: "أنا أفكِّر إذًا أنا موجود"، وكلُّ وسائل تناولنا للتلمذة من الأوَّل إلى الآخر تكرِّر هذا المفهوم.

يفترض هذا النموذج المعقلَن للإنسان- الذي يختزلنا إلى مجرَّد عقول- أنَّ التعلُّم (ومن ثَمَّ التلمذة) هو مسألةُ إيداع أفكار ومعتقدات في أوعية عقليَّة، وتُردِّد العالمة المختصَّة بالتعليم بواسطة النُّقود بِل هوكس (Bell Hooks) صدى ما يقوله پاولو فريري (Paulo Freire)، مُطلقةً على هذا النموذج اسم النموذج "البنكيِّ" للتعليم، حيث نتعامل مع المتعلِّمين كأنَّهم خزائن للمعرفة والأفكار، أي مجرَّد مستقبلاتٍ عقلانيَّةٍ للمعتقدات، ومن ثَمَّ نفكِّر في الفعل بوصفه "سُحُبًا" من بنك المعرفة، كما لو كانتْ أفعالُنا وسلوكيَّاتنا هي دائمًا نتاج أفكار واعية منطقيَّة مقصودة تنتهي بخيار واعٍ مُحدَّد، كما لو كانت سلوكيَّاتنا هي أصلًا ناتجة من معادلة رياضيَّة تُحسَب في رؤوسنا نفكِّر فيها، ونتحرَّك بها وفقَ هذه الأفكار في العالم، وفي كلِّ هذا نتجاهل القوَّة الهائلة للعادة.[1]

لذا نفترض أنَّ التلميذ هو متعلِّم يحصل على معلومات أكثر عن الله بواسطة الكتاب المقدس، وأنَّ التلمذة الجادَّة هي في الواقع تلمذة **العقل**، وهذا حقيقيٌّ؛ فالكتاب المقدَّس يحثُّنا أن نستأسر كلَّ فكر إلى طاعة المسيح

(٢كورنثوس ١٠: ٥) وأن نتغيَّر عن شكلنا بتجديد أذهاننا (رومية ١٢: ٢)، فتابع المسيح يجب أن يكون دارسًا للكلمة، ويجب أن يكون مِمَّن "في ناموس الربّ" مسرَّتهم (مزمور ١: ٢)، فإذا كنت جادًّا في اتِّباع المسيح، فستنتهز كلَّ فرصة لتتعلَّم المزيد عن الله، وكلمة الله، وما تطالبنا به، وما يريده الله لخليقته، وستأتي ليس فقط إلى فترات العبادة والعظة، بل يجب أيضًا أن تكون موجودًا في صفوف التعليم، وتنضمَّ إلى المجموعات الصغيرة لدراسة الكتاب، وتقرأ الكتاب المقدَّس يوميًّا، وتحضر كلَّ مؤتمر تستطيع حضوره، وتلتهم الكتب التي تساعدك أن تفهمَ الله وكلمته، وتنهل من نهل المعرفة؛ لأنَّك تريد أن **تتعلَّم**.

والمثيرُ للدَّهشة أنَّ هذا أيضًا صحيح في حالة الإيمان المسيحيِّ الذي يعلن عن نفسه أنَّه "ضدُّ العقلنة"؛ فالكثير من أنماط التقوى المسيحيَّة والتلمذة التي تتَّخذ موقفًا متشكِّكًا من الدراسة اللاهوتيَّة المنظَّمة في كلِّيَّات اللاهوت وتتخوَّف من التعليم اللاهوتيِّ العالي، تتَّخذُ هي أيضًا موقفًا "عقليًّا" من حيث الطريقةُ التي تتناول بها التلمذة والتشكيل الروحيَّ، وتُركِّزُ تركيزًا ضيِّقًا على ملء عقولنا بالمعرفة الكتابيَّة، باقتناع أنَّ بإمكاننا الوصول إلى القداسة بواسطة **التفكير**، وأنَّ في وُسعنا أن نتكرَّس بنقل المعلومات. وفي الواقع، هذا هو الاعتقاد الكامن وراء الإعلان عن برنامج حفظ الآيات المذكور آنفًا: إذا كنت "أنت ما تفكِّر فيه"، فإنَّ ملء تفكيرك بالآيات الكتابيَّة يجب أن يُترجم إلى شخصيَّة شبيهة بالمسيح، أليس كذلك؟ إذا كنت "أنت ما تفكِّر فيه"، فإنَّ تغيير ما تفكِّر فيه سيغيِّرك، أليس كذلك؟

هل هذا صحيح؟

قوَّة العادات

هل اختبرت من قبل الفجوة بين **ما تعرفه وما تفعله**؟هل وجدت من قبل أنَّه لا يبدو أنَّ معرفتك ومعلوماتك تُترجَم إلى أسلوبِ حياةٍ جديد؟ هل اختبرتَ أحدَ أيَّام الآحاد الاستماع إلى عظة ملآنةٍ بالمعلومات والاستنارة، واستيقظت يوم الاثنين ولديك قناعاتٌ جديدةٌ وتصميمٌ جديدٌ على التغيير، ثمَّ تفشلُ فيها كلِّها بحلول مساء الثلاثاء؟ لديك جوعٌ إلى المعرفة، وعطشٌ إلى أفكار الكتاب المقدَّس، وتتوق لأن تتغيَّر شخصيَّتك إلى صورة المسيح، ولكن لا يبدو أنَّ كلَّ هذه المعرفة تتحوَّل إلى أسلوب حياة، ويبدو أنَّنا لا نستطيع أن نصل إلى القداسة بواسطة الأفكار. لماذا؟ هل لأنَّك نسيت شيئًا مثلًا؟ أو هل هناك المزيد من المعرفة تحتاجُ إلى الحصول عليه كي يتحقَّق التغيير؟ أم هل لأنَّك تحتاج لأن تفكِّر بمزيد من الجدِّيَّة؟

ماذا لو كان الأمر أنَّك لستَ مجرَّد كائن مفكِّر؟ ماذا لو كانت المشكلة هي في ذلك النموذج الضمنيِّ للإنسان الذي نستخدمه في تعاملنا مع قضيَّة التلمذة؟ ماذا لو كان ديكارت مخطئًا في اختزال وجودنا كلِّه في عمليَّة التفكير؟ إذًا لا تكمن المشكلةُ في صدق قراراتنا، أو في صحَّة معلوماتنا، بل في أنَّنا لسنا مجرَّدَ كائناتٍ مفكِّرة.

لكنْ ما البديل إذًا؟ إذا كنَّا نشكُّ في أولويَّة التفكير والمعرفة، ألن يعني ذلك أنَّنا سننزلق إلى اعتناق توجُّهٍ مضادٍّ للفكر ونستبدل به المشاعر مثلًا؟ أوَلَيس هذا هو الخطأ في الثقافة المعاصرة التي تحكم على الأمور فقط بالمشاعر الناتجة عنها وتشجِّعنا كي نتتبَّع شغفنا وتجعل الأمور الصواب هي الأمور التي

تعطينا مشاعر جيِّدة؟ هل نصبح عندئذٍ أسرى لرغباتنا وشهواتنا؟ ونتصرَّف بناءً على أيَّة نزوة؟ ألا يحتاج المؤمنون بالمسيح إلى التركيز على **التفكير** للحصول على المعرفة الضروريَّة لمقاومة ثقافة التصرُّف وَفقًا للنَّزعات والنزوات؟

ما رأيك في هذا؟ هل نجح هذا الأمرُ معك؟ ألسنا نعودُ مرَّةً أخرى إلى المشكلة؟ هل قدَّمتْ إليك معرفتك ومعلوماتك وتفكيرك، الحرِّيَّة من العادات التي تريد أن تتحرَّر منها؟ وكلُّ مَن حضر من قبل اجتماعًا لزمالة المدمنين المجهولين يعلَمُ هذا الشعار جيِّدًا "لقد أوصلتك أفضل أفكارك إلى ما أنت عليه".[٢] إنَّ تساؤلنا وتشكُّكنا في صحَّة النموذج الذي يقول إنَّنا لسنا سوى كائنات مفكِّرة لا يعني بالضرورة رفضَ التفكير. فإنَّ إدراكنا محدوديَّة المعرفة، لا يعني أنَّنا نعتنق الجهل؛ فنحن لا نحتاج إلى ما هو أقلَّ من المعرفة، بل بالعكس، نحتاج إلى ما هو أكثر؛ إذ نحتاج إلى إدراك قوَّة العادات.

لهذا نحتاج إلى رفض الصورة الاختزاليَّة التي تسرَّبت إلينا من زمن الحداثة، وهي الصورة التي تعاملُنا كما لو كنَّا في الأصل مجرَّدَ كائنات مفكِّرة، ونحتاج إلى تبنِّي نموذج أكثر كُلِّيَّةً للشخصيَّة الإنسانيَّة يكون مستندًا أكثر إلى الكتاب المقدَّس- نموذجٍ يضعُ التفكير والمعرفة في مكانهما الصحيح وفي العلاقة الصحيحة بالجوانب الأخرى من الذات الإنسانيَّة. لقد اعتدنا قراءةَ الكتاب المقدَّس بعدسة ديكارتيَّة شعارها "أنا أفكِّر إذًا أنا موجود"- حتَّى إنَّنا نراه يؤكِّد طريقتنا المعَقْلَنة التي تحسب أنَّ الإنسانَ كائنٌ مفكِّر، لكنَّنا حينما نقرأ بعناية أكثر متخلِّين عن هذه المرشِّحات (الفلاتر) الحداثيَّة، سنجد في ما يفترضه الكتابُ المقدَّس نموذجًا مختلفًا تمامًا.

تأمل، مثلًا، صلاة بولس المميَّزة من أجل المؤمنين في كنيسة فيلبِّي في الجزء الأوَّل من رسالته إليهم: "وهذَا أُصَلِّيهِ: أَنْ تَزْدَادَ مَحَبَّتُكُمْ أَيْضًا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ فِي الْمَعْرِفَةِ وَفِي كُلِّ فَهْمٍ، حَتَّى تُمَيِّزُوا الأُمُورَ الْمُتَخَالِفَةَ، لِكَيْ تَكُونُوا مُخْلِصِينَ وَبِلا عَثْرَةٍ إِلَى يَوْمِ المسِيحِ، مملُوئِينَ مِنْ ثَمَرِ الْبِرِّ الَّذِي بِيَسُوعَ المَسِيحِ لِمَجْدِ اللهِ وَحَمْدِه" (فيلبِّي ١: ٩-١١). لاحظ الترتيب في صلاة بولس هنا، فإذا قرأتها بسرعة أكثر من اللازم، ربَّما تخرجُ بانطباع أنَّ الاهتمام الأساسيَّ لبولسَ هو المعرفة؛ فبالنظرة العابرة، وبافتراض عادات تفكيرنا قد تظنُّ أنَّ بولسَ يصلِّي لتتعمَّقَ معرفة المؤمنين في فيلبِّي حتَّى يعرفوا ما يجب أن يحبُّوا. لكنَّ نظرةً ثانية تقولُ إنَّ صلاةَ بولس هي العكس تمامًا؛ فهو يصلِّي أن تزداد **محبَّتهم** أكثر فأكثر؛ لأنَّ المحبَّة، بصورةٍ ما، هي شرطُ المعرفة، فالأمرُ ليس أنِّي أعرف كي أحبَّ، بل أحبُّ كي أعرفَ. وإذا كان لنا أن نميِّز "ما الأفضل"- الأمر "المتميِّز"، أي ما يهمُّ حقًّا، وما يشكِّلُ الأهمِّيَّة القصوى- يخبرنا بولس الرسول بأنَّ المكانَ الذي يجب أن نبدأ فيه هو **محبَّاتنا**.

يعملُ هنا نموذجٌ مختلفٌ للإنسان؛ فبدلَ النموذج العقلانيِّ الذي يفترض ضمنًا "أنَّك ما تفكِّر فيه"، تشيرُ صلاة بولس الرسول إلى قناعة مختلفة تمامًا، وهي "**أنَّك ما تحبُّ**".

ماذا لو بدأنا من الاقتناع بأنَّ البشر أوَّلًا محبُّون، بدلَ البدء من فرضيَّة أنَّ البشر مفكِّرون؟ ماذا إذا كُنت تُعَرَّف ليس بما لديك من معرفة، بل بما لديك من رغبة؟ ماذا إذا كان مركز الإنسان لا يقع في المراكز العُليا المنطقيَّة من المخِّ، بل في المراكز الدُّنيا (مراكز الأحشاء) التي تدير المشاعر والرغبات؟ كيف يمكن أن يغيِّر ذلك مفاهيمك عن التلمذة والتشكيل الروحيِّ المسيحيِّ؟

حكمة قديمة نافعة للمسيحيِّين المعاصرين

هذا النموذج الكتابيُّ الأصيل للكيان الإنسانيُّ هو وصفة علاجيَّة للكنيسة التي ابتلعت طُعم التفكير الحداثيِّ الذي يحسب الإنسان كائنًا يُفكِّر. وكما يحبُّ روبرت وبر (Robert Webber) أن يقول إنَّ مستقبل الكنيسة عتيقٌ؛ فنحن نستطيعُ أن نجدَ الحكمةَ المسيحيَّةَ التي يحتاج إليها عالم ما بعد الحداثة في العودة إلى الأصوات العتيقة التي لم تسقط من قبلُ في فخِّ الاختزال الحداثيِّ. تأمَّلْ مثلًا ما فعله القدِّيس أغسطينوس، وهو اللاهوتيُّ والفيلسوف المسيحيُّ والأسقف الذي عاش في القرن الخامس في شمال أفريقيا. لقد استطاع أغسطينوس أن يستوعبَ الصورة الكلِّيَّة للإنسان وذلك في عصرٍ باكرٍ من حياة الكنيسة. ففي الفقرة الافتتاحيَّة من كتاب أغسطينوس "**الاعترافات**"، والذي يُعَدُّ قصَّةَ حياته الروحيَّة التي صاغها في صلوات، يحدِّد أغسطينوس بدقَّةٍ بؤرةَ الهُويَّة الإنسانيَّة: "لقد صنعتنا لذاتك، وستظل قلوبنا حائرةً حتَّى تستقرَّ فيك".[٣] وفي هذا السطر المختصر تتكثَّف حكمةٌ يمكنها أن تُحدِثَ تغييرًا جذريًّا في الطريقة التي نتعامل بها مع العبادة والتلمذة والتشكيل المسيحيِّ؛ إذ يمكن تمييز مواضيعَ عديدةٍ في هذه الفكرة الثاقبة العميقة.

يقدِّم أغسطينوس أوَّلًا طرحًا بشأن الهدف الذي خُلق الإنسان من أجله، وهذا مهمٌّ لسببَين، أوَّلًا، لأنَّه يعترف أنَّ البشرَ مصنوعون بواسطة الخالق، ومن أجله، وقد عرفنا هذا الخالقَ بأوضح صورة في يسوع المسيح. بكلمات أخرى، كي يكون الإنسان إنسانًا بالكامل، عليه أن "يجد" نفسه في إطار علاقة بالذي صنعه والذي من أجله هو موجود. والإنجيل هو الطريقة التي بها نتعلَّم كيف

نكون بشرًا.[٤] وكما عبَّر إيريناوس (Irenaeus) ذات مرَّة: "إنَّ مجد الله هو إنسان يحيا بصورة غنيَّة".[٥] ثانيًا، الصورة الضمنيَّة للإنسانية هي صورة **حركيَّة ديناميَّة**، فمعنى أن تكونَ إنسانًا هو أن تكون **من أجل** شيء ما، أي متَّجهًا إلى وجهةٍ ما، أو في حالة تَحَرُّك نحو شيءٍ ما، تسعى **في سبيل شيء** ما. إنَّنا نبحثُ دائمًا عن معنى وجودنا، ويجب أن نتحرَّك كي نعيش؛ فلسنا مخازن ثابتة تحتوي على الأفكار، بل كائنات ديناميَّة تتحرَّك نحو غاية، وكلمة غاية في اليونانيَّة هي "تيلوس" (Telos)، وتعني "هدفًا"، أي أنَّنا غائيُّون، وأغسطينوس مُحقٌّ بشأن ذلك الإدراك أنَّ البشر كائناتٌ غائيَّة.

الموضوع الثاني الذي يستحقُّ الذكر هو أن أغسطينوس حسبَ أنَّ المركز أو "عضو" التوجيه الغائيِّ في الإنسان هو القلب، وهو مركز رغباتنا واشتياقاتنا. غير أنَّ كلمة "القلب"، أو "كارديا" (Kardia) في اليونانيَّة، ارتبطت في ثقافتنا بالرومانسيَّة الحالمة وبطاقات الهدايا والقلوب الحمراء وغيرها، وليس هذا المقصود بتاتًا بالقلب في لغة الكتاب المقدَّس، أو في لغة أغسطينوس؛ فالقلب هو عُمق أعماق الأشواق الإنسانيَّة- هو **التوجُّه** العميق، بل الأعمق، من الوعي بالعالم، لذلك لا يضعُ أغسطينوس للأمر إطارًا عقليًّا بل إطارًا أكثر عمقًا من ذلك؛ فهو لم يقل: "لقد خلقتنا يا الله لكي **نعرفك**، وعقولنا ستظلُّ جاهلةً إلى أن تفهمك"، فالشوق الذي يصفه أغسطينوس لا يشبه الفضول بقدر ما يشبه الجوع، ولا يشبه اللغز العقليَّ الذي يحتاج إلى الحلِّ بقدر ما يشبه العَطش إلى الماء (انظر مزمور ٤٢: ١-٢)، لذلك ففي هذه الصورة نجد أنَّ مركز الإنسان لا يقع في عقله بل في قلبه، لماذا؟ لأنَّ القلب هو المساحة الوجوديَّة التي يقع فيها ما نُحبُّ بالفعل، والأمور التي نُحبُّها هي التي توجِّهُنا

نحو الغاية التي نشتاق إليها، وليست المسألة أنِّي "أعرف" هدفًا ما و"أصدِّق" غايةً بعَينها، بل هي أنِّي **أشتاق** إلى هدف ما، و**أريد** شيئًا ما بشدَّة؛ فرغباتي هي التي تحدِّد هُوِيَّتي، أي باختصار: أنت ما تحبُّ.

في العلاقة الحركيَّة الحيَّة ما بين الحبِّ والمعرفة، العقل والقلب، يرسم الكتاب المقدَّس صورةً كلِّيَّةً للإنسان؛ فالله يفتدي ليس فقط عقولنا، بل يفتدي أيضًا الإنسانَ كلَّه، عقلًا وقلبًا؛ فالمسيح يستأسر عقولنا وكذلك قلوبنا، وأيضًا ما يُسمِّيه بولس أحشاءَنا (Splagchna)، وهي الأجزاء الداخليَّة، وهي مركَز "مشاعرنا".

وقد بدأ العلم الحديث في اللحاق بهذه الحقائق الكتابيَّة القديمة بشأن الإنسان، ولا يزال باحثون من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس وجامعة مكماستر يُجرون تجاربَ تُلقي بمزيدٍ من الضَّوء على "**المشاعر الداخليَّة**"، وتشير دراساتهم إلى الطريقة التي تؤثِّر بها ميكروباتٌ في المعدة في النشاط العصبيِّ للمخِّ، وقد كتبوا في تقريرهم: "ليس الدماغ مجرَّد عضو آخر من أعضاء الجسم؛ فهو يتأثَّر بكلِّ ما يحدث في الجسد".[أ] وفي الواقع، تشير تقارير في الموقع "الأميركيُّ العلميُّ" (Scientific American) إلى وجود شبكة خلايا عصبية تبطِّن أمعاءنا، وهي ممتدَّة حتَّى إنَّ بعضَ العلماء أطلقوا عليها "الدماغ الثاني"[ب]، فلا عجبَ أنَّ يسوع يدعونا لنتبعَه حتَّى في الأكل والشرب (يوحنَّا ٦: ٥٣–٥٨)، فالتلمذة تتلامس ليس فقط

مع عقولنا أو حتَّى قلوبنا، بل تصل أيضًا حتَّى إلى أحشائنا- إلى مشاعرنا العميقة.

أ. http://www.npr.org/sections/health-shots/2013/11/18/244526773/gut-bacteria-might-guide-the-workings-of-our-minds

ب. http://www.scientificamerican.com/articles/gut-second-brain

في الواقع، يمكننا أن نقول إنَّ البشر عمومًا هم كائنات **اشتهائيَّة** (Erotic)، لكنْ للأسف- ولأسباب مفهومة- تحمل كلمة "اشتهائيّ" مدلولات سلبيَّة في الثقافات المتأثِّرة كثيرًا بالموادِّ الإباحيَّة، لذلك يميل المسيحيُّون إلى التخوُّف من المفاهيم الاشتهائيَّة (وكثيرًا ما نخلق ما يشبه التضادَّ ما بين إيروس [Eros] وأغابي [Agape]، ونحن المسيحيِّين نقدِّسُ الأخيرة حاسبين أنَّها تعبِّرُ عن المحبَّة "المسيحيَّة"). ولكنَّ هذا المفهوم يتنازل عن الصلاح الأصيل للرغبة الاشتهائيَّة ممَّا يسمح للثقافة المُعاصرة باقتناصها وتشويهها.[٦] إنَّ الرغبة الاشتهائيَّة في شكلها الأكثر صدقًا وأصالة هي الرغبة والانجذاب، وهما سمتان حميدتان في خِلقَتِنا الإنسانيَّة. وبدلَ الفصل المزيَّف ما بين "إيروس" و"أغابي"، ينبغي أن نفكِّر في أغابي بوصفها "إيروس" الموضوعة في مكانها الصحيح؛ حيث إنَّ محبَّة المسيح التي انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا (رومية ٥: ٥) هي رغبةٌ تُجاه الله مفتداةٌ وموضوعة في مكانها الصحيح؛ فأنت ما **ترغب فيه**.

ويُنتج هذا الجانب الغائيُّ، ومعه مركَزيَّة المحبَّة في الكِيان الإنسانيِّ، تلك الفكرة الثاقبة الثالثة التي يقدِّمها القدِّيس أغسطينوس: أنَّنا مخلوقون

كي نحبَّ ذاك الذي صنعنا وأحبَّنا- "نحن نحبُّه لأنَّه هو أحبَّنا أوَّلًا" (١يوحنا ٤: ١٩)- ونجد "راحة" عندما تنضبط محبَّاتنا وتتوجَّه نحو هذه الغاية النهائيَّة، لكنَّ أغسطينوس يُدرك أيضًا الموقفَ البديلَ: فلأنَّ قلوبنا مصنوعة كي تجدَ غايتَها في الربِّ، سنختبر قلقًا عميقًا وضيقا شديدًا عندما نحاول أن نحبَّ أمورًا بديلة، فلا نستطيع إلَّا أن نُحبَّ، فليس السؤال **ما إذا كنتَ تحبُّ** شيئًا ما حُبًّا مُطلقًا؛ بل السؤال هو **ما الذي** ستحبُّه حبًّا مُطلقًا؟ وستكون أنت ما تحبُّ.

بعد هذه الإطلالة على الكتاب المقدَّس والحكمة القديمة للقدِّيس أغسطينوس، يتَكَشَّف لنا نموذج للإنسان يختلفُ عَمَّا نفترضه عادَةً. ويقدِّم هذا النموذج إطارًا للتفكير في قضيَّة التلمذة، وطبيعة التقديس، والدور الذي تقوم به العبادة. فلنرَ ذلك بتشبيه يساعدنا على "تصوُّرَ" ما نتكلَّم عنه.

توجيه الرغبة: في سبيل أن تكون إنسانًا

أن تكون إنسانًا يعني أن تكون في حالةِ سعيٍ دائم، وأن تحيا يعني أن تكون في رحلة ما لاواعية للوصول إلى أحلامك. فكما قال بليز پاسكال (Blaise Pascal) في مقولته المشهورة: "يجب أن تنخرط في شيءٍ ما، ولا خيار لك، فأنت منخرط بالفعل".[٧] لا تستطيع إلَّا أن تراهن بكلِّ حياتك على شيء ما، ولا تستطيع إلَّا أن تكونَ متوجِّهًا إلى وجهةٍ ما، إذ نعيش مُندفعين نحو ما نتوق إليه ونحلم به.

والمكان الذي نشتاقُ إليه اشتياقًا لاواعيًا هو ما يُطلِقُ عليه الفلاسفة القدامى غايتنا أو هَدَفَنا أو قَصدَنا. لكنَّ الغاية التي نعيش تُجاهَها ليسَتْ بالضرورة ما

نعرفه أو نؤمن به أو نفكِّر فيه، بل هي في الواقع ما **نريده، ما نشتاق إليه**، فليست النموذج المثاليَّ الذي لدينا أفكارٌ تُجاهَه، بقدرِ ما هي رؤية إلى "الحياة الجيِّدة" التي نَرجوها، فهي صورة للازدهار الذي نتخيَّله تخيُّلًا بدائيًّا وجدانيًّا، وهو ليس في عقولنا بل في أحشائنا. وعادة ما لا نستطيع أن نصيغه في كلمات؛ فهو إحساس مُبهَم، لكنَّه جذَّابٌ جدًّا بحيث يدفعنا نحو ما نرى أنَّه يحقِّق السعادة الحقيقيَّة التي نرجوها. إنَّه الرؤية التي تتغنَّى بها كوزيت (Cosette) وسط الحضيض الذي تعيش فيه في رائعة ڤيكتور هوغو (Victor Hugo) "**البؤساء**" *(Les Misérables)*، وهو "قلعتها التي فوق السحاب"، وأغلبنا يسير في الحياة حاملًا رؤى لاواعية وضمنيَّة كهذه، وربَّما تكون أقلَّ إبهارًا لكنَّها ليست أقلَّ قوَّةً، لذا يمكننا أن نقول إنَّك يجب أن ترغب في مملكة ما لكي تكونَ إنسانًا، وعندها ندعوها "مملكة". ويعني هذا أنَّنا نتكلَّم ليس فقط عن جنَّةٍ شخصيَّةٍ خاصَّة- أو نيرڤانا (Nirvana) فرديَّة- بل نعيشُ كلُّنا ونتوق إلى رؤيا **جمعيَّةٍ** لما نظنُّ أنَّه ينبغي للمجتمع أن يكونَ عليه، لهذا هناك طبيعةٌ سامية لهذه الرؤيا، فأن تكون متوجِّهًا نحو نوع ما من الحياة الأفضل، يعني أن تسعى في إثر رؤيا ما لما **ينبغي** أن يكون عليه العالم.

أن نكون بشرًا يعني أن تُحرِّكَنا وتوجِّهَنا رؤيا عن الحياة الجيِّدة، وصورة لما نحسبه السعادة والنجاح والازدهار، وأن نرغب فيها ونريدها، لذا فتوجُّهنا الأعمق نحو هذا العالم هو المحبَّة، وأشواقنا توجِّهنا، ورغباتنا تحرِّكنا، ونتبنَّى أساليبَ للحياة مرتبطةً بهذه الرؤى عن الحياة الجيِّدة، وهذا عادة ليس لأنَّنا "فكَّرنا" جيِّدًا في الخيارات المتاحة، بقدر ما أنَّ تلك الصورة خلبَتْ ألبابَنا، واستحوذت على خيالنا. ويعبِّرُ أنطوان دي سان إكسوپري (Antoine de Saint-Exupery) كاتب

رواية "**الأمير الصغير**" *(The Little Prince)* عن هذه القوَّة الدافعة، بدقَّةٍ وقوَّة في تلك العبارة: "إذا أردتَ بناءَ سفينة، حفِّزِ الناس ليس فقط على الاستمرار في جمع الحطب، ولا توكل إليهم مهامَّ عملٍ روتينيَّة، بل علِّمْهم أن يتوقوا إلى آفاق البحار البعيدة". إنَّنا لا نُلهم ولا نُدفع بفعل الأفكار المجرَّدة، ولا نتحرَّك بأقصى قوَّتنا بسبب القواعد والقوانين والواجبات، لكنَّ ما يُلهب خيالَنا ويحرِّكنا بأقصى قوَّة، هو تخيُّلنا لصورة متكاملة لما نحسبه النجاح والسعادة والازدهار. وسرعان ما ننجذبُ إلى هذه الصورة، ويصيرُ تحقيقها هو الهدفَ الذي نحيا ونعمل من أجله، إذ ننجذب إلى أسلوب الحياة الذي يبدو مؤدِّيًا إلى تحقيق هذه الصورة والوصول إلى ذلك العالم، وهذه **الغاية** تعمل فينا، ليس بإقناع العقل، بل بجَذْب القلبِ والخيال.

أن نكون بشرًا يعني أن تحرِّكَنا وتوجِّهَنا رؤيا عن "الحياة الجيِّدة".

إذًا، السؤال مرَّة أخرى ليس ما إذا كنتَ تحلم بمملكة، بل هو: ما المملكة

التي تحلم بها؟ وينطبق هذا على كلِّ إنسان؛ فهو السِّمة البنيَويَّة للخليقة الإنسانيَّة؛ فأنت لا تستطيع إلَّا أن تُحبَّ، لذا فالقلب هو مركز الإنسان ونقطة ارتكازه، وهو ما يحرِّك وجودنا كلَّه؛ فنحن محبُّون أوَّلًا وأخيرًا، وإذا استخدمنا تشبيه حياتنا برحلة، فالقلب هو أشبه بالبُوصلة، ونظام التحريك الداخليِّ في الوقت نفسه؛ لأنَّه يُشبهُ جهاز الرغبات متعدِّد الوظائف الذي هو جزئيًّا المحرِّك، وجزئيًّا المصباح الذي ينير الطريق، وهو يعمل في الأعماق التي لا يصل إليها وعينا المُباشر، لذا يُعدُّ أشبَه بالطيَّار الآليِّ، إن جاز التعبير، الذي يقود الطائرات. فرغبات قلوبنا من ناحية **تشير** إلى الطريق الذي نسير فيه، ومن ناحية أخرى تدفعنا نحو المملكة التي نصبو إليها، وهناك نوع من التناغم ما بين **الغاية** التي ننشدها، والرغبات المحتدمة داخلنا والتي تدفعنا نحوها- مثل التأثير المغناطيسيِّ الذي يُحدثه "القُطب" في "الإبرة" الوجوديَّة الموجودة في قلوبنا، فأنت ما تُحبُّ؛ لأنَّك تحيا متَّجهًا نحو ما **تريد**.

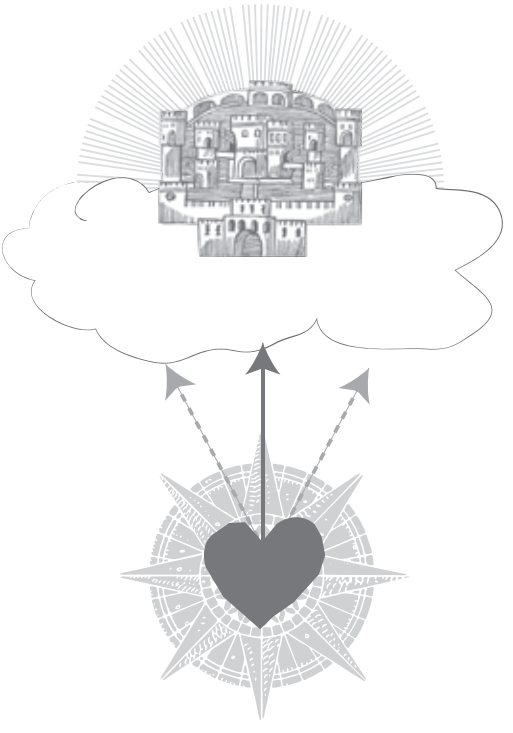

القلب الإنسانيُّ هو أشبه بالبوصلة، فهو يوجِّهنا نحو رؤيا ما "للمملكة" المنشودة، التي هي غايتنا.

يقدِّم إلينا القدِّيس أغسطينوس تشبيهًا آخر كي نفهم تلك الديناميَّة: الحبُّ مثل الجاذبيَّة، وقد كتب أغسطينوس قبل إسحاق نيوتن (Isaac Newton) بقرون عن الجاذبيَّة، لذلك تختلفُ اللغة التي يستخدمها، فهو يصيغ الأمرَ على النحو التالي:

"يميل أيُّ جسم، بفعل ثقله، إلى التحرُّك نحو مكانه المناسب،

> وحركة الثقل ليست بالضرورة إلى أسفل، ولكنَّها حركة نحو المكان المناسب، فالنار تميل إلى الحركة إلى أعلى، والحجر إلى أسفل، ويقع كلُّ جسم تحت تأثير وزنه ليذهب به إلى مكانه، فعندما نسكب الزيت تحت الماء، فإنَّه يصعد فوق الماء، وعندما نسكب الماء فوق الزيت، فإنَّه ينزل تحت الزيت، فكلُّ مادَّة تتحرَّكُ بفعل كثافتها لتذهب نحو مكانها الطبيعيّ. وما لا يوجد في مكانها المحدَّد، يظلُّ في حالة توتُّر، لكنَّه يستريحُ مطمئنًّا ما إن يصلُ إلى مكانه الصحيح".[٩]

كلُّنا يعلم المبدأ الذي يتكلَّم عنه أغسطينوس. فهل لعبتَ قبلًا في المسبح وحاولت أن تُبقي كرةً منفوخةً تحت الماء؟ ستجدُ أنَّ ميلَها المستمرَّ، أو "رغبتها" التي لا تكلُّ، أن تطفو على السطح، لكنَّها تظلُّ "متوتِّرةً"، أو "قلقة"، عندما تحاول أن تدفعَها تحت الماء، حتَّى إنَّها تحاول أن تراوغك وتتسلَّل من بين يديك لترتفعَ إلى السطح، كما لو أنَّها **تريد** أن تطفو. أمَّا جسمي فيتصرَّفُ بالعكس، فحين أريد أن أطفوَ على سطح الماء، يجذبني وزني نحو الأسفل.

ويستطردُ أغسطينوس شارحًا المثل: "ثقلي هو ما أحبُّ؛ فحيثما أنا محمول، فما أحبُّه هو ما يحملني". إنَّ الأمور التي نحبُّها تمتلك جاذبيَّةً ما تشدُّنا وتحملُنا نحوها؛ فإذا كنَّا نحبُّ الأشياء المادِّيَّة، سننجذب إليها في الأسفل. لكنْ إذا كانت نيران تجديد الروح القدس هي ما يجذبُنا، فسنتحرَّك بفعلها إلى أعلى. وفي الصورة المثيرة التي يرسمها أغسطينوس: "بعطيَّتك نلتهبُ ونُحمَل إلى أعلى: نتوهَّجُ ونصعد إلى فوق في قلوبنا (مزمور ٨٤: ٧)،

ونغني «ترنيمة المصاعد» (مزمور ١٢١: ١)، نتوهَّجُ بنارك الصالحة، ونصعد إلى أعلى. وبينما نرتقي نطلب سلامةَ أورشليم (مزمور ١٢٢: ٦)".[١٠] وما التلمذة إلَّا أن نلتهبَ بالنار الإلهيَّة، فيتغيَّر الثقل الذي يجذب قلوبنا.

بوصلة الرغبة: المحبَّةُ عادةٌ

في هذا النموذج البديل للشخصيَّة، يقع مركز الجاذبيَّة للهُوِيَّة الإنسانيَّة في القلب، أي في مكان الرغبات والأشواق الدفينة في الأحشاء. فرغباتنا هي التي تُحرِّكُنا وتوجِّهُنا نحو الغاية النهائيَّة التي نحسبها الحياة الجيِّدة، أي نسخة الملكوت التي نحيا في سبيلها ومن أجل تحقيقها؛ فمعنى أن تكونَ إنسانًا هو أن تكونَ مُحِبًّا، وأن تحبَّ أشياءَ وترغبَ فيها حاسبًا إيَّاها أشياءَ قُصوى وغايات مُطلقة.

لكنَّنا سنقدِّر أهمِّيَّة ذلك للتلمذة عندما ندرك أنَّ مثل هذه المحبَّة هي نوع من الرغبات اللاواعية التي تعمل دون أن نفكِّر فيها، لكنَّنا لكي نقضي على الصورة النمطيَّة الاختزاليَّة التي ترى أنَّ الحبَّ مجرَّد شعور، فإنَّنا أحيانًا- مُحقِّين- نؤكِّد أنَّ الحُبَّ اختيار، أو كما غنَّى كلينت بلاك (Clint Black) أنَّ "الحبَّ أمرٌ نفعله" وبصورة ما هذا صحيح، لكنْ بصورة أخرى، الحبُّ الذي نتكلَّم عنه هنا- بوصفه البوصلة الأساسيَّة التي تُوجِّهُنا في الحياة، هو اختيار أقلُّ وعيًا وأكثر شبهًا بالميل التلقائيِّ الدفين، وكأنَّه التوجُّه الأساسيُّ الكامن وراء الاختيارات التي نتَّخذُها.

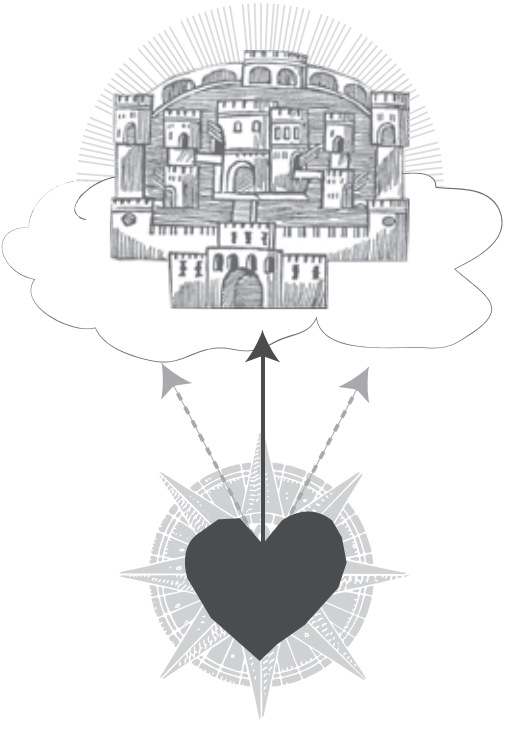

المحبَّة هي أشبه بالطيَّار الآليِّ الذي يوجِّهنا تلقائيًّا دون أن نفكِّر في الأمر.

هذه طريقة قديمة وكتابيَّة في فهم الحبّ؛ ففي الواقع عندما نعيد قراءة بولس الرسول دون المفاهيم التي تحسب الإنسان مجرَّد آلة تفكير، نلاحظ شيئًا مثيرًا في وصفه للحبّ. تأمَّل كيف يعظ المسيحيِّين في كولوسِّي: "وأنتُم الذينَ اختارَهُمُ الله فقَدَّسَهُم وأحَبَّهُم، البَسُوا عَواطِفَ الحَنانِ والرَّأفَةِ والتَّواضُعِ والوَداعَةِ والصَّبرِ. احتَمِلوا بَعضُكُم بَعضًا، ولْيُسامحْ بَعضُكُم بَعضًا إذا كانَت لأَحَدٍ شَكوى مِنَ الآخَرِ. فكما سامَحَكُمُ الرَّبّ، سامِحوا أنتُم أيضًا. والبَسُوا فَوقَ هذا كُلِّهِ المَحبَّةَ،

فهِيَ رِباطُ الكَمالِ" (كولوسِّي ٣: ١٢-١٤، الترجمة العربيَّة المشتركة).

يستخدم بولس تشبيه "اللبس" ليصفَ الحياة المسيحيَّة، فأن "تلبسوا" المسيح يعني أن ترتَدوا اللُّطف والرأفة والتواضع والوداعة (راجع أيضًا رومية ١٣: ١٤) وفوق كلِّ هذه علينا أن "نلبس" المحبَّة، كما لو كانت كلُّ هذه الفضائل ملابس نرتديها، والمحبَّة هي حزام يربط كلَّ أجزاء الملابس معًا. لكنْ لاحظ عندئذٍ كيف يصفُ بولس كلَّ هذه السمات الشخصيَّة للمسيح حاسبًا إيَّاها **فضائل**. ولأنَّ لدينا دائمًا شعورًا مبهمًا بأنَّ الفضيلة تنتمي إلى الأخلاق، فإنَّنا فقدنا تقليديًّا استيعاب أنَّ هذه السمات هي مجموعة قُوى تتملَّكُنا كما تلتصقُ الملابس بنا، وليست مجرَّد أفكار نقتنع بها، أو اختيارات أخلاقيَّة نتَّخذها بصورة منفصلة عن أعماق كِياننا، لذلك فلأشرَحْ باختصار أساسيَّات الفضيلة لنستطيعَ أن نفهمَ تضمينات الوصايا التي يعظُ بها بولس في ما يتعلَّق بالمحبَّة.

إنَّ الفضائل، ببساطة، عادات أخلاقيَّة جيِّدة (يُطلَق على العادات الأخلاقيَّة السيِّئة "رذائل"). وتُعدُّ العادات الأخلاقيَّة الجيِّدة ميولًا داخليَّة إلى فعل الصلاح- سماتٍ شخصيَّةً تصبح منسوجة في **كيانك** حتَّى تصبح **ذلك النوع** من البشر الذي يميل لأنْ يكون شفوقًا وغفورًا. وهكذا تختلف الفضائل إذًا عن القوانين أو القواعد الأخلاقيَّة، وهي شروط للخير خارجة عن الإنسان. وكما يُشيرُ توما الأكوينيّ (Thomas Aquinas) إلى أنَّ هناك علاقة عكسيَّة ما بين الفضيلة والقانون[١١]: فكلَّما كان إنسانٌ ما متمتِّعًا بالفضيلة- أي كلَّما كان لديه ميلٌ **داخليٌّ** إلى الصلاح يخرجُ من شخصيَّته خروجًا شبه

تلقائيّ- لَما احتاجَ إلى قوَّةٍ خارجيَّةٍ تفرضُ عليه الصلاح. وعلى العكس، كلَّما كان إنسانٌ ما "شرِّيرًا" أو كانت مجموعةٌ ما من البشر "شرِّيرة"، احتاجوا إلى "عصا" خارجيَّة تُرغمُهم على فعل ما ينبغي أن يفعلوه. ومن رَبَّى أطفالًا يُدرك جيِّدًا هذه الديناميَّات؛ ففي السنين الأولى نحتاج إلى إخبار الأطفال إخبارًا متكرِّرًا، وربَّما إرغامهم على فعل الصواب، وبذلك ندرِّب حسَّهم الأخلاقيَّ. غير أنَّ الهدفَ والأمل هو أنَّهم سيتبنَّون بمرور الوقت الرغبة في الصلاح داخلهم فيصبحون تلقائيًّا **ذلك النوع من الناس** الذي يميل إلى فعل الصلاح دون "عصا" القواعد والقوانين التي ترغمهم عليه.

فبشكل ما إذًا، معنى أن يكون المرء فاضلًا هو أن يتبنَّى داخله القانون الأخلاقيَّ (الخير الذي يشير إليه القانون) حتَّى تتبعه بشكل يكاد يكون تلقائيًّا. وكما يقول أرسطو، عندما تكتسب عادةً أخلاقيَّةً، تصبح أشبه بأمرٍ تلقائيٍّ لك (طبيعة ثانية). لكن لماذا ندعو مثل هذه الأشياء طبيعة "ثانية"؟ لأنَّ طبيعتنا "الأولى" هي البرمجة التي تميِّزُ أنظمتنا البيولوجيَّة، وتعمل دون تفكير من جانبنا، ففي هذه اللحظة بالذات، لا **تختار** أن تتنفَّس، ولا تفكِّر في تنفُّسك (ربَّما تفكِّر الآن أنَّك تتنفَّس، وتطرف عينَيك، وتهضم إفطارك، لكنَّك في ٩٩,٩٪ من الوقت لا تفكِّر في هذه الأمور)؛ لأنَّ "الطبيعة" ببساطة تهتمُّ بعملية معقَّدة تتمُّ في اللاوعي. أمَّا تلك العادات التي تصبح طبيعة "ثانية" لك، فهي تعملُ بالطريقة نفسها، وتصبح منسوجة في كيانك، حتَّى تصبح طبيعيَّة مثل التنفُّس وحركة العين والجفنَين، إذ لا تحتاج إلى التفكير فيها أو اختيار فعلها، فهي أمورٌ تحدُث طبيعيًّا، لذلك عندما تكتسب مثل هذه الفضائل التي تصبح طبيعة ثانية لك، فيعني هذا أنَّك تصبحُ ذلك الإنسان

الذي يميل إلى الصلاح، فتصبح رحيمًا وشفوقًا لأنَّ الرحمة والشفقة تصبحان محفورتَين في شخصيَّتك، فلن تحتاج إلى التفكير في هذه الأمور، بل تصبح طبيعتك (في واقع الأمر، إذا كنت **أحتاج** إلى التفكير مليًّا في ما إذا كنتُ سأشفق أم لا؛ فهذه علامة أكيدة أنِّي أفتقر إلى هذه الفضيلة).

إذًا فالسؤال المحوريُّ هو: كيف يمكنني أن أكتسبَ مثل هذه الفضائل؟ لا أستطيع فقط أن أحصل عليها بالتفكير والتأمُّل فيها. هذا فرق آخرُ ما بين القوانين أو القواعد من ناحية، والفضائل من ناحية أخرى؛ فالقوانين والقواعد، والوصايا والأوامر تحدِّد الصلاح وتعبِّر عنه، إذ تخبرنا بما ينبغي أن نفعله. أمَّا الفضيلة فتختلف؛ لأنَّه لا يمكن اكتسابها عقليًّا، بل وجدانيًّا. فالتدريب في الفضيلة ليس مثل تعلُّم الوصايا العشر أو حفظ كولوسِّي ٣: ١٢-١٤، بل هو نوع من **التشكيل** أي إعادة تدريب ميولنا، ويشبه "تعلُّم" الفضيلة- أي التحلِّي بها- التدرُّب على النوتات الموسيقيَّة لعازف البيانو وليس دراسة نظريَّات الموسيقا؛ فالهدف بشكلٍ ما هو أن تتعلَّم **أصابعك** النوتات حتَّى تستطيع هذه الأصابع أن تعزف عزفًا "طبيعيًّا"، فالتعلُّم ليس مجرَّد الحصول على المعلومات، بل هو أشبَه "بِنقش" أمرٍ في نسيج كِيانك.

وهكذا أكَّد الفلاسفة واللاهوتيُّون من أرسطو إلى الأكوينيِّ جانبَين من جوانب اكتساب الفضيلة:

أوَّلًا، أنَّنا نتعلَّم الفضيلة بواسطة التقليد (المحاكاة)، وعلى نحوٍ أكثرَ تحديدًا بتقليد أمثلة للعدالة والشفقة واللطف والمحبَّة. لكنَّنا في ثقافتنا نُعلي كثيرًا من قيمة "الأصالة" ونؤكِّد تأكيدًا كبيرًا الجِدَّة والفرادة، ومن ثَمَّ فللتَّقليد

سُمعة سيِّئة، وكأنَّ الذي يقلِّد هو شخصٌ مزيَّفٌ (فالتقليد هو عكس النموذج الأصليِّ). لكنَّ العهد الجديد ينظرُ إلى التقليد في ضَوءٍ آخرَ تمامًا؛ إذ إنَّه يوصينا بأن نكونَ مقلِّدين، فيقول بولس الرسول مثلًا: "كونوا مُتمثِّلين بي كما أنا أيضًا بالمسيح" (١كورنثوس ١١: ١). وبالمثل يمتدح بولس التقليد ويوصي به مؤمني فيلبِّي: "كونوا مُتمثِّلين بي معًا أيُّها الإخوةُ، ولاحظوا الذين يسيرون هكذا كما نحن عندكم قدوة" (فيلبِّي ٣: ١٧)[١٣]، إذ يشبه الأمر طفلًا صغيرًا يتعلَّم حلاقة الذقن بتقليد ما يراه من أبيه. فنحن نتعلَّم أن "نلبس" الفضائل بتقليد مَن يجسِّدون لنا حياةَ المسيح، وهذا جزءٌ من قوَّةِ التشكيل التي يقدِّمها إلينا معلِّمونا الذين يقدِّمون إلينا نموذجًا للحياة المتشبِّهة بالمسيح. ولهذا عملَ التقليد المسيحيُّ على إعلاء أمثلة مُبهرةٍ للتشبُّه بالمسيح، وهم القدِّيسون الذين كثيرًا ما نرى صورَهم على الزجاج الملون في الكنائس.

ثانيًا، يحتاج اكتساب الفضيلة إلى **ممارسة**، فهذه الميول الأخلاقيَّة التي تعكس الملكوت تُنقَشُ على جدران شخصيَّتك بالإيقاع والتكرار والروتين والطقوس، والتي إذا طُبِّقتْ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، فإنَّها تطبعُ فينا مَيلًا إلى غاية (Telos)، وتصبح هذه الغاية أشبَه بسِمةٍ في الشخصيَّة- نوعًا من الطبيعة الثانية (التلقائيَّة) المُكتسبة التي نجد أنفسنا نميلُ إليها "دون أن نفكِّر في الأمر". ومن المهمِّ أن ندركَ أنَّ مثل هذه الميول ليست "طبيعيَّة"؛ فنحن لا نتكلَّم عن برمجةٍ بيولوجيَّة أو غرائز طبيعيَّة؛ فالفضائل تُعلَّمُ وتُكتسبُ بواسطة التقليد والممارسة، وكأنَّ لنا عضلات أخلاقيَّة تتدرَّبُ مثلما تتدرَّبُ عضلاتنا البيولوجيَّة لكي تستخدمَ مضربَ الغولف أو التنس، أو لكي تعزف النوتات الموسيقيَّة على البيانو.

والآن ما أهمِّيَّة كلِّ هذا في مشروعنا لرَسْم نموذجٍ بديلٍ للشخصيَّة الإنسانيَّة؟ لأنَّنا إذا كنَّا ما نحبُّ؛ وإذا كانت المحبَّة فضيلة، فالمحبَّة إذا هي **عادة**. ويعني هذا أنَّ توجُّهَنا الأساسيَّ نحو العالم- أشواقنا ورغباتنا التي توجِّهنا نحو نسخة ما من الحياة الجيِّدة- يتشكَّلُ بواسطة التقليد والممارسة، ولهذا تضميناتٌ مهمَّة في الأساليب التي نتناول بها تشكيلنا المسيحيَّ وتلمذتَنا.

إعادة ضبط القلب: المحبَّة تحتاج إلى الممارسة

باختصار، إذا كنتَ ما تحبُّ؛ وإذا كان الحبُّ عادةً، فالتلمذة إذًا هي عمليَّةُ إعادة تعويد محبَّاتك، ويعني هذا أنَّ التلمذةَ هي عمليَّة إعادة تشكيل أكثر من كونها إكسابَ معلومات؛ فالتعليم الأساسيُّ للتشكيل المسيحيِّ هو تعليم وجدانيٌّ وحِسِّيّ- مسألة "إعادة توجيه" الحُبِّ والرغبات نحو الله وما يرغب الله فيه لخليقته.

إذا كنتُ ما أحبُّ، وتتوجَّه محبَّاتي نحو غاية ما- أي أنَّها تتوجَّه نحو نسخة ما من الحياة الجيِّدة- فالسؤال المهمُّ الذي أحتاج إلى طرحه على نفسي هو: كيف يمكنني أن أعيدَ تَوجيهَ محبَّتي؟ لقد رأينا حتَّى الآن أنَّ الإنسان محبٌّ في الأساس، فهو مجموعة من المحبَّات والرغبات والتوجُّهات، وهو مخلوق يعيشُ في هذا العالم بما تحكمه توجُّهاته العاطفيَّة والحسِّيَّة (الاشتهائيَّة) نحو ما يرغب فيه ويتمنَّاه. ورأينا أيضًا أنَّ كلَّ إنسان مصمَّمٌ لكي يجد غايته الاشتهائيَّة النهائيَّة في الخالق نفسه، في الملك الذي قابَلَنا في يسوع المسيح. لكنَّ تركيبة الوجود الإنسانيِّ لا تضمن لنا أن نتوجَّه نحو الاتِّجاه الصحيح. ومع أنَّ كَونَنا بشرًا يعني أنَّنا لا يمكن **إلَّا** أن نحبَّ شيئًا ما بصورة مُطلقة- شكلًا ما من أشكال

الملكوت (أي أن يكونَ لنا ملكوتٌ نتَّجه نحوه)- فلا يعني هذا أنَّنا بالضرورة سنحبُّ الشيءَ الصحيحَ أو نتوجَّه إلى الملكوت الحقيقيِّ، أو المَلِكِ الحقيقيِّ، فقد خلقنا الله لنفسه وقلوبنا مصمَّمة لكي تجدَ غايتها فيه. لكنَّ الكثيرين يُمضون أيَّامهم باحثين عن ممالك مُغايِرة، ويتوقون إلى آلهة منافسة، ومن ثمَّ لا يختبرون الراحة، فأشواق قلوبنا غير الواعية موجَّهة نحو وجهة أخرى، وتوجُّهُنا مشوَّهٌ، وبوصلة رغباتنا الحسِّيَّة مضطربة، وتعطينا دائمًا إشارات خاطئة. وعندما يحدث ذلك، يمكن أن تكون النتائج كارثيَّة.

في عام ١٩١٤م، بعد نحو سنتَين من غَرَق **تيتانيك** (Titanic)، عقدَ الكونغرس الأميركيُّ جلسةَ استماعٍ لكي يحدِّد ما حدث في مأساة بحريَّة أخرى. ففي كانون الثاني/يناير من العام نفسه؛ ووسط ضباب كثيف قُبالةَ سواحل ڤيرجينيا، اصطدمت السفينة البخاريَّة **مونرو** (Monroe) بناقلة الحاويات **نانتوكايت** (Nantokite). وفي النهاية غرقت، ولقيَ واحد وأربعون بحَّارًا حتفهم في مياه المحيط الأطلسيِّ قارسة البرودة. ورغم أنَّ قبطان نانتوكايت، أوسمين بيري (Osmyn Berry)، هو من استُدعيَ لتوجيه التهمة إليه، فقد استجوبوا القبطان إدوارد جونسون (Edward Johnson) لأكثر من خمس ساعات استجوابًا قاسيًا. وفي أثناء ذلك الاستجواب المتبادل، اتَّضح، كما كتبت صحيفة **النيويورك تايمز**، أنَّ القبطان جونسون "كان يقود مونرو مستخدمًا بوصلة منحرفة أكثر من درجتَين عن القياس الصحيح. وقال القبطان إنَّ البوصلة كانت سليمة بما يكفي لقيادة السفينة، وكان المعتاد لربابنة السفن في التجارة البحريَّة أن يستخدموا مثل هذه البوصلات. ولم يضبط القبطان جونسون بوصلته طَوال السنة التي قاد فيها السفينة مونرو". واتَّضحَ أن البوصلة المخطئة التي بدت كافية للإبحار، لم

تكن كذلك في واقع الأمر. ويشرحُ هذا الاكتشاف جزئيًّا الصورة المفجعة التي سجَّلتها الصحيفة: "في ما بعد، تقابل القبطانان، وتصافحا، وبكيا أحدُهما على كتف الآخر". إنَّ بكاء هذين الرجلَين من رجال البحر الأشداء لهو من المشاهد التي تذكِّرنا دائمًا بالنتائج المأساويَّة للاتِّجاهات الخاطئة.[١٤]

وما يجب أن نتذكَّره هو التالي: إذا كان القلب مثل بوصلة، أي مثل جهاز حسِّيٍّ عاطفيٍّ يوجِّهُنا دائمًا نحو المرفأ، فعلينا دائمًا وبانتظام أن نعيدَ ضَبْطَ قلوبنا وتوجيهها، لكي تتَّجه دائمًا نحو خالقها، قطبنا الشماليِّ المغناطيسيِّ الوحيد. ومن الحيويِّ أن ندرك أنَّ محبَّاتنا النهائيَّة، وأشواقنا الكُبرى، ورغباتنا الضاغطة هي أمور **نتعلَّمها**. ولأنَّ المحبَّة عادة، تُضبطُ قلوبنا بتقليد الأمثلة والانغماس في التدريب المستمرّ، حتَّى تُوجِّهَ قلوبَنا بمرور الوقت توجيهًا تلقائيًّا نحو نهاية ما. إننا إذًا نتعلَّم أن نحبَّ، ليس في الأساس باكتساب المعلومات بشأن ما يجب أن نحبَّ، بل بالتدريب الذي يُنشئ عادات نتعلَّم بها **كيف** نُحِبّ، ومثل هذه التدريبات هي "تربية" الرغبات، ليس لأنَّها محاضرات تقدِّم إلينا معلومات، بل لأنَّها طقوسٌ تشكِّل وجداننا وتوجِّهه.

في كتاب "**في مملكة الجليد**" *(In the Kingdom of Ice)*، نرى السردَ الشائقَ لهامپتون سايدز (Hampton Sides) عن الحملة الفاشلة للسفينة الأميركيَّة جانيت (Jeannette) لاستكشاف القطب الشماليِّ في القرن التاسع عشر بقيادة الضابط جورج دي لونغ (George De Long)، وهي قصَّة تحذيريَّة أخرى عن **أخطار التوجيه الخاطئ**– ولم يكن فشلُ هذه

الحملة بسبب توجيه خاطئ للبوصلة، بل بسبب خريطة مغلوطة، إذ اعتمدت حملة دي لونغ برمَّتها على صورة للقطب الشماليِّ (المجهول وقتها) والتي كانت موجودة في تلك الخرائط (المضلِّلة تمامًا) التي صمَّمها د. أوغست هاينريك بيترمان (Dr. August Heinrich Petermann)، وكانت الخرائط تقترح أنَّ هناك بين الجليد "مساحة قطبيَّة" شاسعة فوق قمَّة العالم هي أشبه بممرٍّ من الجوِّ الملائم في ما وراء الجليد. واعتمدت حملة دي لونغ كلُّها على هذه الخرائط لكي تصل إلى هذه المساحة.

لكنِ اتَّضح لاحقًا أنَّ هذه الخرائط تقود إلى عالم ليس موجودًا أصلًا. وبسرعة أحاط الجليدُ الصلبُ بالسَّفينة، وكما يروي سايدز، كان على الفريق أن يتخلَّوا عن كلِّ أفكارهم السابقة بوصفها أحلامًا رومانسيَّة بلا أساس، ويستبدلوا بها محاولات تخمين الطريق الصحيح إلى القارة القطبيَّة".[أ]

كثيرًا ما توهمنا ثقافتنا بخرائط خياليَّة عن "الحياة الجيِّدة"، وترسم صورًا خادعةً تجذبُنا إليها، وكثيرًا ما نؤسِّسُ رحلات حياتنا على هذه الخرائط، ونبحر نحوها بكلِّ ما أوتينا من قوَّة، فاعلين ذلك دون أن نفكِّر في الأمر؛ لأنَّ هذه الخرائط موجودة في مخيِّلاتنا، لا في عقولنا الواعية. ولن نُدركَ أنَّنا وثقنا بخرائطَ خاطئة إلَّا حينما تتحطَّم بنا السفينة.

أ. Hampton Sides, *In the Kingdom of Ice: The Grand and Terrible Polar Voyage of the USS Jeannette* (New York: Doubleday, 2014), 163.

ها هي إذًا الفكرة المحوريَّة المهمَّة للتشكيل والتلمذة المسيحيَّين: ليس فقط أنَّ التعليم بالممارسة هو الوسيلة التي تضبطُ قلوبَنا، بل هي أيضًا الطريقة نفسها التي بها تُضلَّلُ محبَّاتنا وأشواقنا وتُبرمَجُ كي تذهبَ نحو حياة ليست هي الحياةَ الفُضلى الحقيقيَّة. وليس ذلك لأنَّ أفكارًا خاطئةً اختطفَتْ عقولنا، بل لأنَّ صورًا أُخرى للسعادة والفرح والازدهار أسرت خيالَنا. ويحدث هذا بالممارسات، وليس بمجرَّد الدعاية الفكريَّة. إنَّ رغباتنا تُستأسرُ بأسلوب الحياة المتكرِّر، وليس بالتعليم والإقناع؛ فقد عشنا منذ نعومة أظفارنا حياةً تجعلُنا ننشد تلك المملكة الأخرى، ونتبع هذه الخرائط المغلوطة المضلِّلة، وكلَّ أنواع الإيقاعات الثقافيَّة والروتين المُعاش يوميًّا، هي بالفعل طقوسٌ تربويَّةٌ لتدريب رغباتنا وتشكيلها وبرمجتها، إذ تدرِّبنا تدريبًا خبيثًا خفيًّا لكي نحبَّ نسخةً خاصَّةً من الحَياة، وتُعَلِّمنا أن نهفو إلى شكل محدَّد ممَّا تحسبه الثقافة "الحياة الجيِّدة"، وهي ليست مجرَّد أمورٍ نعملها، بل هي أمورٌ تعملُنا، أي تغيِّرنا وتبرمجُنا.

ويعني هذا أنَّ التشكيل الذي يقوده الروح القدس لمحبَّاتنا هو إعادة ضبط قلوبنا وبرمجتها، وإعادة توجيه ما نُحبُّ وما نُريد، وذلك بنسيان مقصود لكلِّ ما تشرَّبناه دون وعي من الممارسات الثقافيَّة، إذ نحتاج إلى إدراك كيف يمكن أن تكون طقوسٌ مثل هذه أشبَه بممارسات مشكِّلة للحبِّ، تُكوِّنُ رغباتنا وتشوِّهُها- ثمَّ نتَّخذ بعد ذلك التدابير المعاكسة المقصودة لتشكيل حياتنا وَفقًا للمملكة المنشودة.

أنت ما تعبد

إذا كنتَ ما تحبُّ؛ وإذا كانت محبَّاتك السامية تتشكَّلُ وتتوجَّهُ بانغماسك في ممارساتٍ وطقوسٍ ثقافيَّة، فهذه الممارسات هي في الأساس ما يشكِّلك،

والأمر الموضوع على المحكِّ هنا هو هُوِيَّتك الحقيقيَّة، وانتماءاتك الأساسيَّة، وقناعاتك المحوريَّة ورغباتك الحميمة التي يتمركز حولها فهمك لنفسك وطريقتك في الحياة. بكلمات أخرى، يتنافس هذا السباق من الممارسات الثقافيَّة للظَّفَر بقلبك- قلب الشخصيَّة الإنسانيَّة التي صمَّمها الله من أجل ذاته. وكما يذكِّرنا القدِّيس أغسطينوس، وبدقَّة أكبر، فإنَّ ما يوضَعُ على المحكِّ في تشكيل محبَّاتك هو هُوِيَّتك الدينيَّة والروحيَّة، والتي تظهر ليس فقط في ما تفكِّر فيه أو تؤمن به، بل في ما تفعله- وما تفعله هذه الممارسات فيك.

لاستيعاب الدلالة الروحيَّة لهذه الممارسات الثقافيَّة، فلنُسمِّ هذه الطقوس التكوينيَّة المُشكِّلة للمحبَّات "ليتورجيات"، وهي كلمة كنسيَّة قديمة نوعًا ما، لكنِّي أريد إحياءها والاستفاضة فيها لأنَّها تبلور جانبًا نهائيًّا لهذا النموذج للشخصيَّة الإنسانيَّة: فأن تقول: "أنت ما تحبُّ" يرادف قولك: "أنت ما **تعبد**"، وقد قال مارتن لوثر ذات مرَّة: "ما يلتصق به قلبك وما تثق به، فذلك حقًّا إلهك"[١٥]، إذ نصبحُ ما نعبده لأنَّنا في الواقع نعبدُ ما نحبُّ. وكما رأينا، فالمسألة ليست ما **إذا كنت** تعبد شيئًا أم لا، وإنَّما **ما هو** ذلك الذي تعبده. ولذلك يشير جون كالڤن إلى القلب الإنسانيِّ بوصفه "مصنعًا للمعبودات"[١٦]، إذ لا نستطيع إلَّا أن نعبد؛ لأنَّنا لا نستطيع إلَّا أن يكون لدينا **شيء** نحبُّه حُبًّا مُطلقًا.

إنَّ عباداتِنا الوثنيَّة إذًا هي أيضًا أوثان ليتورجيَّة أكثر من كونها لاهوتيَّة، فليس أكثر أوثاننا إغواءً هو مخترعات عقليَّة، بقدر ما هو إسقاطات وجدانيَّة، فهي ثمار رغباتنا المشوَّشة، وليس فقط نتائجَ لعدم الفهم أو الجهل. فبدلَ أن

نحذر من التعاليم الخاطئة ونحلِّل الثقافة لكي ننقِّيها من الرسائل المشوَّهة، نحتاج ليس فقط إلى إدراك وجود لاهوت منافس، بل هناك أيضًا ليتورجيا منافسة في كلِّ مكان، وهذه الأنماط التربويَّة للرغبة (والتي سنتطرَّق إليها بصورة أكبر في الفصل الثاني) هي بشكل ما ليتورجيات ثقافيَّة- نماذج منافسة للعبادة.

معنى أن تكون إنسانًا هو أن تكون حيوانًا ليتورجيًّا، مخلوقًا تتشكَّلُ محبَّاته بعبادته، والعبادة ليست اختياريَّة، إذ نرى مثلًا كاتبًا مثل ديڤيد فوستر والاس (David Foster Wallace)، مَن لم تكن له أجندة لاهوتيَّة، لكنَّه أدرك أنَّ كونَك إنسانًا يعني أن تكونَ عابدًا. وفي خطاب افتتاحيٍّ شهير في كلِّيَّة كنيون (Kenyon College)، عبَّر عن هذا الأمر كالتالي:

> "في خنادق معركة الحياة اليوميَّة، لا يوجد شيء اسمه إلحاد، ولا يوجد شيء اسمه ألَّا تعبد؛ فالجميع يعبدون، لكنَّ الخيار الوحيد أمامك هو ماذا تعبد. والسبب البارز الذي يحدِّد الإله أو النسقَ الروحيَّ الذي تعبده- سواء كان يسوع المسيح، أم الله أم يهوه، أم الإلاهة الأمُّ أم الحقائق الأربع السامية أم أيَّة مجموعة قواعد أخلاقيَّة- هو تلك الحقيقة، وهي أنَّ أيَّ شيء آخر ستعبده، سيأكلك حيًّا. فإذا عبدت المال والأشياء- أي إذا كان المال والأشياء المادِّيَّة مصدرك للحصول على المعنى في الحياة- فلن تحصل على ما يكفي بتاتًا، وهذه هي الحقيقة. وإذا عبدت جسدك وقدَّست الجمال والإغواء الجنسيَّ، فستشعر دائمًا بأنَّك قبيح. وعندما

يبدأ الزمن والعمر في تَرْك بصماته عليك، ستموتُ مليون مرَّة قبل أن تموت بالفعل. وعلى أحد المستويات، نعرف جميعًا هذا الأمر بالفعل؛ فقد وُضِعتْ شيفرته في ثقافتنا الإنسانيَّة في صورة أساطير وأمثال وأقوال مأثورة ونكات وملاحظات ساخرة، فهذه الحقائق تقع في خلفيَّة أيَّة قصَّة عظيمة. أمَّا التحدِّي فهو الحفاظ على هذه الحقيقة نصب أعيننا في وعينا اليومي، لأنَّك إذا عبدت السُّلطة والتأثير مثلًا، فستشعر بالضعف والخوف دائمًا، وستظلُّ محتاجًا إلى مزيد من السيطرة على الآخرين لكي تبعد ذلك الخوف عن قلبك. وإذا عبدتَ عقلَك وذكاءك، فسينتهي بك الأمر وتشعر بأنَّك غبيّ، أو محتال، وتحت التهديد الدائم أن يُفتَضَحَ أمرك.

إنَّ الأمر الخبيث في هذه الأشكال من العبادة ليس أنَّها شرِّيرة أو خاطئة، بل أنَّها غير واعية؛ فهي إعدادات تلقائيَّة (Default Settings)، كما أنَّها ذلك النوع من العبادة الذي تنزلق أنت إليه بالتدريج يومًا بعد يوم دون أن تدري، ويجعلك هذا تنتقي بالتدريج ما تراه وما تفعله، والكيفيَّة التي بها تقيس قيمة الأشياء دون أن تكون واعيًا تمامًا لما تفعل".[١٧]

يرى والاس حقيقة أنَّنا لا نستطيع أن نهرب من العبادة، لكنَّه يفشل في إدراك سِمةٍ مهمَّةٍ من سمات الرغبة الإنسانيَّة: أنَّك لا تستطيع أن **تفكِّر** لكي

تحدِّد لنفسك الطريقة السليمة للعبادة. فأن نصير واعين لما نفعله، ليس الحلَّ الوحيد- ولا حتَّى الحلَّ الكافي- لذلك التحدِّي الحقيقيِّ، الذي هو محقٌّ في الإشارة إليه، لكنَّ الاستجابة الأكثر كلِّيَّةً هي أن نعيدَ برمجةَ اللاوعي إعادةً موجَّهة، لكي نعبد جيِّدًا، ونغمس أنفسنا في ليتورجيات منضبطة على موجة ملكوت الله انضباطًا سليمًا حتَّى تصبح رغباتنا واشتياقاتنا اللاواعية وتوجُّهاتنا الوجدانيَّة الضمنيَّة الدفينة نحو العالم موجَّهة نحو الوجهة التي يريدها الله لهذا العالم. وبواسطة العبادة الروحيَّة، تأسرنا نعمة الله، وتوجِّه حتَّى اللاوعي فينا.

نستطيع أن نرى تلميحات تشير إلى ذلك إذا عُدنا إلى رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسِّي، فبعد وعظه لأهل كولوسِّي في ٣: ١٢-١٤، يتناول بولس العبادة قائلًا: "وليملك في قلوبكم سلام الله الذي إليه دعيتم، في جسد واحد وكونوا شاكرين. لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى وأنتم بكلِّ حكمةٍ معلِّمون ومنذرون بعضكم بعضًا بمزامير وتسابيح وأغاني روحيَّة، بنعمة، مترنِّمين في قلوبكم للربِّ" (كولوسِّي ٣: ١٥-١٦).

ويشبهُ ما يصفه بولس هنا كثيرًا العبادةَ في الكنيسة، وهي هذا "الجسد" الذي نحن مدعوُّون إليه، ويمكننا الآن أن نرى علاقةَ الأمر بموضوعنا، إذ نلبسُ محبَّة المسيح (أحشاء الرأفات) كما نقرأ في الأعداد ١٢-١٤ و"نلبس" فضيلة المحبَّة بأن نجعل كلمة المسيح تسكن فينا بغنى، بتعليم وإنذار بعضنا بعضًا، وبترنيم المزامير، والتسابيح، والأغاني الروحيَّة، وممارسة العبادة المسيحيَّة تدرِّب محبَّاتنا- فهي تدريبات من أجل الملكوت الآتي، ممارسة تغرسُ فينا عاداتٍ تليق بمواطني ملكوت الله.

يجب أن ندرك أنَّ العبادة المسيحيَّة هي في الأساس تشكيلٌ مضادٌّ يقاوِمُ الليتورجيات التي نحن منغمسون فيها في هذا العالم، وثقافة مضادَّة للممارسات الثقافيَّة التي تأسر على نحوٍ سرِّيٍّ محبَّاتنا واشتياقاتنا، وتُبرمجُنا وتوجِّهُنا نحو نُسخ منافسة للحياة الصالحة التي يريدها الله لنا، ولهذا فالعبادة هي جوهرُ التلمذة، لذا لا نستطيع أن نواجه قوَّة الليتورجيات الثقافيَّة بالاستعانة بالمعرفة التعليميَّة التلقينيَّة المسكوبة في عقولنا، ولا نستطيع إعادة برمجة القلب من أعلى إلى أسفل بوسائلَ معرفيَّة، بل يحدث توجيه القلب من القاع إلى القمَّة، بتشكيل عاداتنا وتعديل رغباتنا، فتعلُّم المحبَّة (محبَّة الله) يحتاج إلى ممارسة.